الخبر التاريخي في تراجم النحويين

(تراجم سيبوية نموذج)

دراسة تحليلية نقدية

Historical news in the biographies of grammarians
(Biographies of Sibawayh as a model)
An analytical and critical study

إعداد

د/ طارق محمود محمد محمود

الأستاذ المساعد بكلية الآداب جامعة الملك فيصل

الخبر التاريخي في تراجم النحويين (تراجم سيبوية نموذج) دراسة تحليلية نقدية

طارق محمود محمد محمود

قسم اللغويات – كلية الآداب جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : tarekmahmoud@gmail.com

الملخص:

الأخبار التاريخية، هي تلك التي سجلت لنا تاريخ النحو العربي بدءًا من نشأته، مرورا بتطوره، وختاما بعرض سير رجالاته، وسجلات قواعده.

ولقد كان لهذه الأخبار أثر كبير في صناعة قناعات راسخة لدى دارسي النحو العربي قديما وحديثا ، فما أورده المؤرخون الذين اعتنوا بالعلوم اللغوية عامة ، وبعلم النحو خاصة ، وبسيبويه على وجه أخص رسخ لدى الدارسين قناعات أضحت من أهم الثوابت العلمية المكينة التي لا يجوز مناقشتها فضلا عن توجيه النقد لما تضمنته من أخبار ، وما بنيت عليها من قناعات، وهذا الفهم للتاريخ الذي يصل أحيانا للتقديس ، ليس أضر منه على العلم ودارسيه ، وقد صدق الزبيري رحمه الله في تصويره للخطورة التي تترتب على الأخبار التاريخية وما يُبني عليها ، فيقول :" التاريخ شيخ الأضاليل"

الكلمات المفتاحية : الخبر التاريخي ، سيبوية ، تراجم النحويين .

Historical news in the biographies of grammarians (Biographies of Sibawayh as a model) An analytical and critical study

Tareq Mahmoud Mohamed Mahmoud
Department of Linguistics - Faculty of Arts - King Faisal University - Kingdom of Saudi Arabia
Email: tarekmahmoud@gmail.com

Abstract :

Historical news are those that recorded for us the history of Arabic grammar, starting from its origins, passing through its development, and concluding with a presentation of the biographies of its characters and records of its rules.

This news had a great impact on creating firm convictions among students of Arabic grammar, ancient and modern. What was reported by historians who paid attention to the linguistic sciences in general, and the science of grammar in particular, and Sibawayh in particular, strengthened the convictions of the scholars.

It has become one of the most important scientific constants that are not permissible to discuss, let alone criticize the news it contains and the convictions it is built upon. This understanding of history, which sometimes reaches sanctification, is no more harmful to science and its students. Al-Zubairi, may God have mercy on him, was truthful in his depiction of the danger that ensue. On historical news and what is built on it, he says: “History is the sheikh of misguidance.”

Keywords: Historical News , Sibawayh , Biographies Of Grammarians

مقدمة

الأخبار التاريخية، هي تلك التي سجلت لنا تاريخ النحو العربي بدءًا من نشأته، مرورا بتطوره، وختاما بعرض سير رجالاته، وسجلات قواعده.

ولقد كان لهذه الأخبار أثر كبير في صناعة قناعات راسخة لدى دارسي النحو العربي قديما وحديثا ، فما أورده المؤرخون الذين اعتنوا بالعلوم اللغوية عامة ، وبعلم النحو خاصة ، وبسيبويه على وجه أخص رسخ لدى الدارسين قناعات أضحت من أهم الثوابت العلمية المكينة التي لا يجوز مناقشتها فضلا عن توجيه النقد لما تضمنته من أخبار ، وما بنيت عليها من قناعات ، وهذا الفهم للتاريخ الذي يصل أحيانا للتقديس ، ليس أضر منه على العلم ودارسيه ، وقد صدق الزبيري رحمه الله في تصويره للخطورة التي تترتب على الأخبار التاريخية وما يُبني عليها ، فيقول :" التاريخ شيخ الأضاليل"[1]

ويقول غيره معلقا عليه :"وأي تشويه للتاريخ يعني تشويه الحاضر وارتباك المستقبل، ولا أظنني أبالغ إذا قلت: إن كثيرا من مآسينا الحاضرة يرجع إلى القيم والقناعات المشوهة التي تسربت إلينا عن طريق أخبار تاريخية لا أساس لها من الصحة " [2] .

إنّ قراءةً موضوعية ومنصفة لتلك الأخبار التي يستقي منها الدارسون لتاريخ النحو قناعاتهم تؤكد احتياجها إلى كثير من المراجعة والتدقيق قبل البناء عليها .

---

١ . نقد النص التاريخي عند الدكتور أكرم ضياء العمري، مقال بموقع إسلام أون لاين في تاريخ ٩/١ / ٢٠١٥

٢ المرجع السابق نفسه.

هذه القراءة الموضوعية المنصفة هي ما أطمح إليه في هذا البحث ، جاعلا أبا بشر عمرا بن عثمان بن قنبر ، الشهير بسيبويه ، الممدوح بلقبه (شيخ النحاة) نموذجا ، أحاول تتبع سيرته في الكتب التي روت حياته ونشاطه ، وأعطتنا ذلك الانطباع أنه ذلك الشخص الفريد الذي بلغ الكمال علما (بكتابه العجيب) وخلقا ، بمنحه الثقة المطلقة فيما يروي ويصدر من أحكام وما يقعد من قواعد ، حتى يروي مَنْ جاء بعده : "لم يكتب الناس في النحو كتابا مثله ، وجميع كتب الناس عيال عليه "١ .

هذا غير ما تواتر من عبارة المدح ،من مثل:(إمام النحاة)، و(حجة العربية)، (وشيخ العربية)، والثقة المقبولة روايته مطلقا ، المعمول برأيه دون منازعة وغيره كثير مما تمتلئ به كتب التراجم والتاريخ حين عرض سيرته وما يتعلق بها من أوصاف.

المشكلة . إذن . التي يحاول هذا البحث مناقشتها ومن ثَمَّ علاجها، هي:

ما المدى الذي تمثله تلك الأخبار من حيث الصحة والثبوت حتى نستطيع أن نبني عليها قناعة تمثل تاريخ سيبويه تمثيلا منضبطا، حقيقية لا خيالا؟ أو بعبارة ثانية: هل الأخبار التي روت تاريخ سيبويه وحياته العلمية اتسمت بالصحة والموضوعية، أم فيها ما يدل على غير ذلك؟!

إن قراءتي لكتب المعاصرين ومِن قبلها كتب التراجم التي سطرها الأقدمون كانت تدفعني دفعا لإعادة النظر في سير القدماء ، ومعرفة الطرق التي وردت منها تلك الأخبار ، وهل تتفق تلك الطرق مع ما نلتزم به شرعا وعرفا في قبول ما يروى أو رده ، خاصة أن كل ما أوردته كتب التراجم والتاريخ رُوِيَ مُشَافَهَةً ، وَبَيْنَ أول الحدث وخبره وناقليه مسافات زمنية بالغة الاتساع .

١مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل العمري ج٧ ص٦٨

هذه النظرة للتاريخ يصفها د. عبد الله إبراهيم، قائلا :" تزاد احتمالات التداخل في الخطابات الشفاهية ، وتذوب في بعضها ، ويعاد أحيانا إنتاجها في صور مختلفة في ضوء مقتضيات الرواية الشفهية وحاجات التلقي وأيديولوجيات العصر الذي تظهر فيه المروية أو تعاد فيه روايتها "[1].

هذه الأخبار التاريخية وما تقوم به من بلورة قناعات تقترب في كثير من الأحايين إلى مستوى العقائد الراسخة بالخبر الموثوق جعلت البعض يدرس بعموم فكرة الخبر في التراث العربي ، ويرصد عواملَ عدةً تؤثر في الأخبار أو تتأثر بها الأخبار ، فتخرجها عن واقعها إلى واقع آخر يرضي الراوي ، أو يقنع الْمُرْوَى له ،وذلك على نحو ما درس محمد القاضي في كتابه (الخبر في الأدب العربي) ،إذ توصل إلى أن الخبر :" تأثر بنوعين من الأيديولوجيا ، هما :الأيديولوجيا السافرة ، الأيديولوجيا المقنعة " ثم عرفها بأنها :" مجموعة الأفكار الخاصة التي تكون أيديولوجيا في مجال محدد ،فالدين والأخلاق شكلان أيديولوجيان ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى العلم والفلسفة والأدب والفن ، ومن ثم فإن ما نعنيه في عملنا بالأيديولوجيا هو هذه الأشكال التي تتجلى لنا في مجمل النتاج الأدبي والفكري الإسلامي ، فاعلة فيه موجهة له ، أو متفاعلة معه متأثرة به ، وهي على وجه الخصوص : الدين الإسلامي ، والعصبية ، والمذاهب الدينية ، والنوازع القومية ... فكما تكون الأيديولوجيا ظاهرة واضحة التأثير في صياغة أغلب الأخبار تكون أيضا مستترة مخفاه توحي من خلال الخبر بما تريد إيصاله من غير تصريح "[2].

---

١ . التلقي والسياقات الثقافية د. عبد الله إبراهيم ص١١١ بيروت ـ دار الكتاب الجديد ٢٠٠١

٢ الخبر في الأدب العربي، دراسة السردية العربية ص ٦٤٤ الناشر: كلية الآداب ـ منوية . دار الغرب العربي الطبعة الأولى ١٩٩٨

وهذه أشياء لم تكن خافية أو مستترة في تراجم النحويين وغير النحويين ، فالعصبية القومية (للبلدان والأوطان) ظاهرة في كثير من التراجم، والعصبية المذهبية في تزكية المترجَم له لم تكن غائبة في كثير من السير ، وإني لأعتقد أن دراسة الروايات وعرض بعضها على بعض قد تظهر أشياء مما أثر في أخبار سيبويه ،تزكية مطلقة مفرطة.

أهمية البحث في ميدان الدراسات النحوية:

ليس من شك في أهمية مثل هذه الدراسات للدرس النحوي ، بل للفكر النحوي الذي يصنع هذا الدرس ويؤثر فيه ، وذلك أن التقدم في الدراسات التي تحاول معالجة النحو العربي مما أصابه من جمود أو تعقيد أو صعوبة، لن يكون إلا بدراسة التاريخ ، والتعامل مع صانعيه على أنهم بشر يصيبون ويخطئون ، وأن أحدهم لم يبلغ الكمال حقيقة أو مجازا ، وأنهم أدوا ما عليهم في فترات واسعة في تاريخ الأمة ، وأن التجديد سنة من سنن الله في الأرض ، أضف إلى ذلك ضرورة التثبت مما روي عن أحدهم تاريخيا مما يجعل الخروج على قانونهم، أو الاعتراض على إنتاجهم من الجرائم التي يلام بها من اقترفها .

فإن تثبتنا مما ورد عنهم، فيحفظ لهم ويُقْتَدَى بهم فيما صح لغة ودليلا، وإن لم يثبت لهم ما روي عنهم تزكية ومدحا، فلا داعي لصناعة أوهام عن الشخصية التاريخية تكون حاجزا عن التجديد والتغيير.

أهداف الدراسة

لهذه الدراسة عدة أهداف أوجزها فيما يأتي:

(١) محاولة جادة لقراءة التاريخ . التراث . قراءة معيارية، أي الحكم على ما يروى وفق معايير متفق عليها، فننفي عن التاريخ ما لم يثبت بدليل قاطع، وكذا ما كان زيفه ثابتا بأدلة قاطعة.

(٢) محاولة لتقييم تاريخ سيبويه عن طريق ما وصلنا من أخباره، بوصفه علامة بارزة في تاريخ النحو العربي، ولتقييم ما استقر في أذهان الدارسين عنه، وعن جهوده التي جعلت منه شيخا للنحاة، وحجة للعربية، وجعلت من كتابه المنسوب إليه قرآنا للنحو، وجعلت لرأيه قداسة لا تنتقد أو تخالف، وفيما يرويه ثقة مطلقة لا تُجْرَحُ.

(٣) انطلاقا من النقطة السابقة، فإني أحاول زحزحة هذه الصورة المثالية التقليدية الموروثة عن (سيبويه) وتاريخه، ببيان وجوه الخلل التي تكتنفها، راجيا أن تكون خطوة وإن قصرت على طريق إعادة النظر فيما بني على هذا التاريخ من عوائق تمنع من تنقية العلم وتجديده وإعادة صياغته دون حرج، ودون (من أراد أن يصنع كتابا فليستح) وكذلك بناء تاريخٍ لعلم النحو على أسس أكثر دقة.

(٤) لفت الأنظار إلى قصور الطريقة التي اعتمدها كتَّاب الأخبار والتراجم والسير قديما وحديثا، إذ اعتمد أكثرهم على نقل الأخبار عمن سبقه نقلا حرفيا بما فيه من روايات يعارض بعضها بعضا، وروايات لا يخفى ما فيها من التكلف والصنعة، دون إعمال لفكر، أو فحص لنقل، بل يستعمل أحدهم خياله . عند المعاصرين خاصة . فينسج منه ما يتعدى النقل إلى ما يتصوره هو، ثم يبنون على هذه الصورة نتائج يجعلونها حقائق لا يمكن مناقشتها فضلا عن صحة الاعتراض أو المخالفة.

منهج الباحث:

بنيت خطة الدراسة على منهجين.

أولهما: المنهج الاستقرائي، فأقوم باستقراء ما روي في تاريخ سيبويه مما ذكرته كتب التراجم قديما، ومما كتبه أبرز المعاصرين عن سيبويه.

ثانيهما:المنهج التحليلي، فأقوم بنقد أخبار سيبويه، محاولا بيان الخلل الذي اعتورها، وسوف يقضي ذلك الهدف بتقسيم خطته إلى ما يأتي:

أولا . المقدمة، وفيها إطلالة حول البحث وفكرته، وأهمية في ميدان الدرس النحوي، وهدف دراسته، ومنهج الباحث، وخطته.

ثانيا . المبحث الأول، وعنوانه: مناهج رواية الخبر في التراث العربي، وفيه ثلاثة مطالب:

مطلب أول . الأخبار التراثية بين المحدثين والإخباريين.

مطلب ثانٍ . نماذج من أخبار سيبويه تمثل المنهجين.

مطلب ثالث . أثر مناهج رواية الأخبار في كتابات المعاصرين.

ثالثا . المبحث الثاني، وعنوانه: تقييم الأخبار التاريخية في ترجمة سيبويه، وفيه مطالبان:

مطلب أول . أخبار تتصل بسيبويه نفسه.

مطلب ثان . أخبار تتصل بكتابه.

رابعا . الخاتمة .وفيها نتائج البحث .

المبحث الأول

مناهج رواية الخبر في التراث العربي

المطلب الأول:

الأخبار التراثية بين المحدِّثين والإخباريين..

المحدثون، أولئك الذين بذلوا من أعمارهم وحياتهم في سبيل توثيق حديث النبي صلى الله عليه وسلم، والتأكد من صحة نسبته إليه. ولقد صاغ علماء الأثر قواعد محكمة تقوم على نقد حملة الأخبار ، بسبر أغوار سيرتهم، والتأكد من استقامة عدالتهم ، والتيقن من التزامهم الخلق القويم الذي يعصمهم من الكذب والبهتان والتقول بغير حق أو سماع صحيح، ولم يكن ذلك إلا لإدراكهم خطورة الخبر وما ينبني عليه من قناعات وأحكام يترتب عليها نتائج عظيمة في تاريخ الفرد والجماعة والأمة، هذه القواعد التي صاغها المحدثون ، هو ما عرف باسم علم الجرح والتعديل ، وهو :

" **الحكم على الرواة تجريحا أو تعديلا بألفاظ خاصة ذات دلائل معلومة عند أهل النظر في متون الحديث لتصحيحها أو تضعيفها ، ولرفع الإشكال عما بدا مشكلا من صحيحها ، ودفع التعارض بينها بتطبيق مقاييس محددة** "[1]

ولقد بنى المحدثون منهجهم على معالم واضحة، أهمها:

(١) العناية التامة بشاهد العيان الثقة.

فدراسة إسناد الرواية كان غرضها في الأساس الوصول بطريق متيقن إلى الراوي الأول الذي سمع الرواية من صاحبها على وجه اليقين ، ومن ثَمَّ عرفوا الرواية الصحيحة بأنها :

---

١ ـ جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي د. محمد طاهر الجوابي ص٩٤، نشر وتوزيع / محمد عبد الكريم عبد الله د.ت

" **ما وصل لنا بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة** "[١] .

وعليه ، فالرواية إذا سقط أحد رواتها ، أو طعن في أحدهم ردت به الرواية وسقط ما بني عليها ، إذ يصير بهذا السقط مرسلا غير مقبول، "فكأن شاهد العيان هو المؤرخ الحقيقي للخبر . . . إذ ليس بينه وبين الوقائع أي وسائط، على أن تبقى مهمة الباحث في أن يتأكد من صدق شاهد العيان، وصدق المخبرين عنه "[٢] يقول عبد الرحمن بن مهدي :

" **خصلتان لا يستقيم فيهما حسن الظن ، الحكم والحديث** "[٣].

ولزيادة الكمال في التأكد من شاهد العيان اشترطوا له شروطا صارمة ، فذكروا أن يكون " **مسلما بالغا عاقلا مميزا صادقا سليما من كل صفة تخل بمروءته ودينه ، واشترطوا أن يكون سليم الذاكرة والفهم إذا حفظ ، صحيح الكتابة والنقل إذا دون، فإذا اختلط أو كثرت غفلته فإنه يسقط توثيقه مهما بلغ ورعه وسلامة نيته، قال ابن سرين :" لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث** "[٤]

(٢) الاستقراء والموازنة:

وهو ملاحظة جميع مفردات ظاهرة ما وحصرها، ثم استخلاص حكم كلي يشملها جميعا، قال ابن المديني :

"**الباب إذا لم تُجْمع طرقه ؛ لم يتبيَّن خطؤه**"[٥] .

---

١ ـ فتاوى إسلامية، لابن العثيمين ج٤ ص٤٤

٢ـ مقدمة كتاب التمييز، محمد مصطفى الأعظمي ص١٥

٣ ـ نفسه

٤ ـ مقدمة صحيح مسلم ص١٣

٥ المقدمة" لابن الصلاح (ص ١١٧) .

وهذا الاستقراء أنواع كثيرة متعددة، منها: استقراء مرويات الراوي الواحد، ومنها: استقراء مرويات الباب الواحد، ومنها: استقراء مرويات الرواة عن شيوخهم وإحصائها وضبطها، ومنها: استقراء كلام العلماء في راو معين ليعرف أثبت ثقة؟ وهل استقرت كلمة المحدثين على جرحه أم تعديله؟ إلخ [١].

ولا ريب أن هذا الجمع والتدقيق في شأن الرواية يفضي إلى الوصول إلى الصواب، بل اليقين في شأن الرواية صحةً وضعفًا. هذا المنهج يعقبه خطوة أخرى في سبيل توثيق الرواية لا تقل عن سابقتها أهمية ، هي خطوة الموازنة والمقارنة بين الروايات التي توافرت من الاستقراء ،ودراسة ما أسفرت عنه من نتائج ، وقياس بعضها ببعض للوصول إلى الحكم الصحيح، يقول الإمام مسلم :

" فبجمع هذه الروايات ومقابلة بعضها ببعض يتميز صحيحها من سقيمها "[٢].

ويقول ابن المبارك :

" إذا أردت أن يصح لك الحديث فاضرب بعضه ببعض"[٣].

وتتم المقارنة عندهم بين سلاسل الأسانيد ، ثم بين المتون ، ليعرف التعارض والاضطراب ، فتقبل رواية وترد أخرى "، وقد استعمل المحدثون طريقة الموازنة في حالات كثيرة، منها ما يأتي:[٤]

---

١ المرجع السابق.

٢ـ مقدمة كتاب التميز ص٣٣ محمد مصطفى الأعظمي

٣ كتاب التعريف بعلم العلل هشام بن عبد العزيز الحلاف ص ٨

٤ انظر مقال (نقد المحدثين إلهام أم منهج منضبط) أ. عبد الجواد حمام، مجلة الوعي الإسلامي ـ الكويت ١٩ /١ / ٢٠١٧

ـ موازنة روايات الحديث الواحد بعضها مع بعض ليعرف الصحيح من السقيم من الشاذ.

ـ موازنة روايات الراوي الواحد بروايات غيره من الثقات لاختبار ضبطه.

ـ موازنة روايات الحديث الواحد بعضها ببعض لشرح غريبه، وإزالة ما في طرقه من إشكال.

ـ مقارنة روايات الراوي الواحد بعضها ببعض في ازمنة مختلفة ليعرف هل اختلط أم لا؟

هذا المنهج هو عمدة المحدثين في تحقيق الرواية، وضمان نسبتها إلى صاحبها، وضمان صحة ما يبنى على هذه الرواية من أحكام.

. أما النهج الثاني فهو نهج الإخباريين.

وهم نقلة أخبار النحويين وغيرهم، وكتبة تراجمهم ، وما سوى ذلك من تاريخ اللغة والعلم عامة.

ولقد كان الظن بهؤلاء النقلة ان يستفيدوا من منهج المحدثين في النقل والإسناد ، حتى نطمئن لتاريخنا ، ونأخذ ما ورد فيه على سبيل القطع، لكنهم تركوا ذلك واعتمدوا في مروياتهم على السرد والحكي دون اعتبار لمسألة التوثيق . وإن أعتمد أحدهم صورة المنهج! يقول د. محمد سعيد الغامدي:

" تتخذ كتب الطبقات بصورة خاصة أسلوب القص ورواية الأخبار الشائعة المتناقلة وسيلة رئيسة لترجمة الأعلام الذين تسميهم "الأدباء " وإن كانوا في الغالب لغويين ونحاة. فهي وإن كانت في الظاهر كتب تراجم هي في حقيقة الأمر كتب سردية ... تنطوي على قدر كبير من السرد

القصصي الخيالي ، وإن كانت تحاول أن تبدو في الظاهر كأنها تقدم ترجمة واقعية حقيقية"[1] .

هذه الطريقة التي ملأت كتب الإخباريين هي الوسيلة الوحيدة التي تعرفنا بها أخبار النحاة عامة ، وهي أخبار نقلت بطريقة شفوية ليس فيها شيء من الحذر، والأخطر أن نقل الحَدَث تم بعد زمنه المفترض بحوالي قرن كامل من الزمن، ، ثم تناقل هذه الأخبار أصحاب كتب الطبقات ... ولهذا النوع من المؤلفات التراثية دون غيره خصوصية ينبغي التوقف عندها والتأمل فيها قبل الأخذ بما ترويه "[2].

فالذي يتابع كتب التراجم يجد هذا النوع من الأخبار المنتشرة طابع الحكاية والحديث الشفوي المتناقل بل تصل أحيانا إلى الخيال بل الخرافة.

العجيب في الأخبار التاريخية عامة وفي تراثنا النحوي خاصة أن المعاصرين تلقوا هذه الأخبار على ما فيها من تناقض وعجائب وخرافة بالقبول، فما من رواية وردت في كتب التراجم إلا ولها حظ عند حشد كبير من الدارسين الذين يثبتونها، ويبنون عليها الوقائع التاريخية، ويصدرون في ظلالها الأحكام العامة المطلقة! وكأني بالجاحظ ـ رغم أنهم ليسوا من العوام ـ يقصدهم بقوله:

" والعوام أقل شكوكا من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك ..."[3]

---

١ ـ قضية نشأة النحو العربي في آثر الدارسين، ص٢٤ د. محمد سعيد صالح الغامدي نشر مجلة الدراسات العربية جامعة المنيا .

٢ ـ المرجع السابق نفسه

٣ ـ الحيوان ج٦ ص٢٢ الجاحظ

إن محاولة قراءة الأخبار التاريخية في تراثنا النحوي سوف تظهر وتثبت بلا شك التهاون الشديد في العناية بما يروى عناية تحفظه من العبث والهوى والاضطراب.

أما أخبار سيبويه التي جعلتها نموذجا لدراسة الأخبار التاريخية في التراث النحوي، فسوف يظهر للقارئ ما دخلها من اضطراب وتعارض وضعف، وكل ذلك هو ما بَنَيْنَا عليه تاريخا جعلناه عنونا لنا ولهذا العلم الشريف الذي نشتغل به، وهو ما سيلحظ في المطالب الآتية.

المطلب الثاني:

نماذج من أخبار تاريخ سيبويه تمثل المنهجين.

في هذا المطلب أضع بين يدي القارئ نماذج من سيرة سيبويه رويت على صورة المنهجين السابقين، فبعض ما روي في تصوير سيبويه وحياته جاء سردا وقصا بلا إسناد ، وبعضها جاء على صورة منهج المحدثين، فيقدمون سندا قبل الرواية توهم بالمنهج ثم يذكرون القصة، وسوف أقوم لاحقا بدراسة ذلك كله لبيان قدر هذه الأخبار التي يحلو لنا أن نتفاخر بها عند الحديث عن أهم حقبة أثرت في علم النحو قديما وحديثا، وسوف أكتفي هنا بنموذجين لكل منهج حرصا على عدم الإطالة.

أولا ـ من أخبار تاريخ سيبويه على طريقة المحدثين:

(١) في: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي رُويَ هذا الخبر :" حدث محمد بن جعفر التميمي، قال: كان سيبويه في أول أيامه صحب الفقهاء وأهل الحديث، وحدث نصر بن علي، قال: كان سيبويه يستملي على حماد فقال حماد يوماً قال رسول الله صلى الله عليه: ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء: فقال حماد: لحنت يا سيبويه ليس هذا حيث ذهبت، إنما ليس هنا استثنيت. فقال سيبويه: لا جرم لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً، فطلب النحو ولزم الخليل"[١] .

١ . انظر الرواية في: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص٦٦، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ج١ ص٣٥ ونزهة الألباء لأبي البركات الأنباري ص٣٨، وإنباه الرواة للقفطي ج٢ ص٣٥٠، بغية الوعاة للسيوطي ج١ ص٥٤٨، وطبقات ابن قاضي شبهة ص٤٦٢، ونفح الطيب ج٥ ص٢٢٥

وهذه الرواية لا يخلو منها كتاب قديم أو حديث يدور موضوعه في تاريخ النحو والنحاة، إذ إن كل من يتحدث عن بدايات سيبويه في طلب النحو ولزومه الخليل بن أحمد الفراهيدي يذكر هذه القصة، مستندا على إسنادها، مطمئنا لروايتها، وسيأتي الحديث عنها وعن غيرها لاحقا.

(٢) رُويَ أيضا في طبقات النحويين للزبيدي ،وبغية الوعاة للسيوطي هذا الخبر، قال: حدثنا مروان، حدثنا الرياشي قال: رأيت سيبويه والأصمعي يتناظران، قال يونس بن حبيب: الحق مع سيبويه، وقد غلب ذا . يعني الأصمعي . بلسانه. قال النظام: إنه عرض على الأصمعي الأبيات التي وصفها سيبويه في كتابه، ففسرها على خلاف ما فسره، فبلغ ذلك سيبويه، فقال: لا ناظرته إلا في المسجد الجامع، قال الأصمعي: فصليت يوما في الجامع ثم خرجت فتلقاني في المسجد فقال لي: اجلس يا أبا سعيد. ما الذي أنكرته من بيت كذا وبيت كذا، ولم فسرت على خلاف ما يجب، فقلت له: ما فسرت إلا على ما يجب، والذي فسرته أنت ووضعته خطأ، تسألني وأجيب، ورفعت صوتي، فسمع العامة فصاحتي، ونظروا إلى لكنته، فقالوا: لو غلب الأصمعي سيبويه فسرني ذلك، فقال لي: إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى قول هؤلاء. ونفض يده في وجهي ومضى، ثم قال الأصمعي: يا بني فوالله لقد نزل بي منه شيء. وددت أني لم أتكلم في شيء من العلم " [١]

وهي رواية مسندة جاءت على صورة منهج المحدثين، وسيأتي الحديث عنها في المبحث القادم نقدا وتحليلا.

---

١ ـ انظر الرواية في طبقات النحويين للزبيدي ص١٨٥، ومعجم الأدباء لياقوت ج١٦ ص١٢٤

ثانيا . أمثلة لأخبار من تاريخ سيبويه على منهج الإخباريين.

وهي أخبار مرسلة منزوعة السند، محاطة بالجهالة والغموض كثيرة جدا في تاريخ سيبويه، ومنها:

(١) في سبب تسميته، تنقل كتب التراجم قاطبة خبر ترقيص أمه إياه على نغم سيبويه![1]

(٢) في رواية أخيه، فقد أوردت كتب التراجم أن لسيبويه أخا " كانت تربطه به روابط الحب والمودة، وكان كظله حيثما حل أو ارتحال ... فقد قالوا: إنه لما اعتل، وضع رأسه في حجر أخيه وأغمي عليه، فبكى أخوه لما رأى ما به وانحدرت من عينيه دمعة حرى على وجه سيبويه الذي فتح عينيه وقال حينما رآه يبكي:

أُخيين كنا فرق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا [2]

وغير ذلك من الروايات التي تحكي تاريخ سيبويه!

١ . انظر. معجم الأدباء لياقوت ج١٦ ص١٤، ونزهة الألباء لأبي البركات ص٢٣٨، تاريخ بغداد ج١٢ ص١٥٦ ومفتاح السعادةج١ ص١٢٩ ونفح الطيب ج٥ ص٢٢٤

٢ ـ انظر. معجم الأدباء ج١٦ ص١٢٢ ونزهة الألباء ص٤١، وتاريخ بغداد ج١٢ ص١٩٨، ونفح الطيب ج٥ ص ٢٢٦ طبقات النحويين للزبيدي ص٧٣

المطلب الثالث

أثر مناهج الأخبار التاريخية في كتابات المعاصرين.

لا ريب أنه كان للمرويات التراثية في تاريخ سيبويه أثر بالغ في كتابات المعاصرين، إذ إنهم اعتمدوا عليها فقط في دراسة وتدريس التاريخ النحوي لكل من درس النحو، وتعرف نحاته إلى يومنا هذا.

لقد كتب المعاصرون كتابات كثيرة تمجد سير النحاة بخاصة شيخهم سيبويه! بل وتخرج عن المنقول إلى غير المنقول تعبيرا عن قناعتهم بالمروي عنه وله، وسوف أضع بين يدي القارئ نماذج من كتابات أربعة باحثين اشتهروا بسيبويه وعرفوا به، وتوسعوا في وصفه أوصافا ليس لها سند معتمد يمكن الاستناد إليه على ما سيتضح لا حقا، فوصفوه اعتمادا على المرويات التراثية بالنجابة تلميذا وأستاذا، وبصحبة العلماء الكثر والناقل عنهم، وصاحب التلاميذ الناقلين عنه، وخليفة الخليل في حلقته، والطّواف بجزيرة العرب يشافه الأعراب ويأخذ عنهم، مع الثقة المطلقة فيما يروي، والعلم المطلق فيما يقول.

(١) الأستاذ سعيد الأفغاني.

يقول: " كان سيبويه تلميذ الخليل الخاص، استوعب علمه، وورث ملكته في القياس والابتكار، ولزم طريقته في التوثق مما يسمع عن العرب، وأودع هذا كله "الكتاب" الذي لولاه لضاع علم الخليل في النحو والصرف. ولم يقتصر سيبويه على علم الخليل بل جمع إليه علم كثير من الفحول المشهورين في عصره، فتتلمذ على أبي عمرو بن العلاء وعلى يونس بن حبيب وعلى أبي الخطاب الأخفش، وأبي زيد الأنصاري، وغيرهم، وإذا لم يسم من ينقل عنه اكتفى بوصفه مثل "حدثني من أثق بعربيته" أو "أنشدناه أعرابي من أفصح الناس"، أما شواهده فكلها معزوة إلى من يحتج به من العرب وأحصوا في "الكتاب" ألفا وخمسين شاهدا معروفا إلا خمسين منها،

ومع ذلك جرى العلماء على الثقة بها مع عدم عزوها لاقتناعهم بأن سيبويه يتحرى في الأخذ والنقل، فجعلوا نقله لهذه الشواهد بمنزلة عزوها إلى من يحتج بلغته؛ لأن التحري والوثوق من عربية من ينقل عنه سمة البصريين عامة، ومدرسة الخليل على التخصيص"[1]

فالأستاذ سعيد الأفغاني يقر لسيبويه بجمعه التلمذة على يدي كل هذه الجمهرة من العلماء الذين ورد ذكرهم في الكتاب ، ويقر له بالثقة التامة في كل ما يرد عنه دون تحر وتدقيق .

(٢) الدكتور شوقي ضيف.

يقول " وكان سيبويه من الثقة بحيث لم يطعن أحد في شيء مما أنشده من الأشعار المجهولة القائل ولا تعلق عليه باتهام أو إنكار، وفي ذلك يقول صاحب الخزانة: "الشاهد المجهول ... إن صدر من ثقة يعتمد عليه قُبل وإلا فلا؛ ولهذا كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد، اعتمد عليها خلف بعد سلف، مع أن فيها أبياتا عديدة جُهل قائلوها وما عِيب بها ناقلوها"[2]

(٣) الدكتورة خديجة الحديثي في ذات الموضوع.

تقول :" وكان صادقا فيما روى وحدث به في كتابه المشهور "[3] وتقول:"... كان سيبويه غلاما ذكيا أنيقا جميلا نظيفا ... لطيفا واسع العقل والإدراك ... طموحا متفائلا حليما، وأكبر دليل على حلمه المناظرة التي

---

١ من تاريخ النحو العربي للأستاذ سعيد الأفغاني ص١١٣

٢ ـ المدارس النحوية د. شوقي ضيف ص٦٣

٣ ـ كتاب سيبويه وشروحه ص٢٩ د. خديجة الحديثي الطبعة الأولى . بغداد ١٣٨٦ . ١٩٦٧، دار التضامن . بغداد

جرت بينه وبين الكسائي حيث وقف بوجهه الأمين ويحيى البرمكي والأعراب لكنه استطاع بحلمه أن يخرج من بغداد دون أن يثير ضجة "[١]

(٤) الأستاذ على النجدي ناصف متأثرا ببعض الروايات.

يقول:" وقد طلب سيبويه أولا علوم الدين، ثم انصرف إلى علوم الأدب، وغلب عليه النحو حتى صار الأمام الأعظم فيه! [٢]. ويقول . معتمدا على بعض الأخبار . " وإذن نستطيع أن نقول مع القائلين، إن سيبويه تعلق من كل علم بسبب، وضرب فيه بسهم إلى جانب إمامته في العربية، وتدل بعض أنبائه على أنه كان يحب الكتب حبا جما، ويقبل على العلم إقبالا شديدا، حتى لا يكاد يفضله لديه شيء أو يشغله عنه شيء "[٣]

فيجمع هؤلاء المعاصرون على أن سيبويه كان ملازما جمهرة من العلماء تتلمذ عليهم، ونقل عنهم، فيذكرون حماد بن سلمة، وعيسى بن عمر الثقفي، ويونس بن حبيب الضبي، وأبو الخطاب الأخفش، وأبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، والخليل بن أحمد، وهارون بن موسى القارئ.[٤]

وقد صاغت الدكتورة خديجة الحديثي مسألة تلمذته لجمهرة العلماء في عبارة مركزة توهم بأنها تنقل عن مصدر متواتر موثوق ، تقول: " وقد تلقى علم القراءات واللغة والنحو عن أساتذته كأبي عمرو بن العلاء... وكان أستاذا لأستاذيه الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب اللذين روى سيبويه

---

١ المرجع السابق نفسه ص٢٧

٢ ـ سيبويه إمام النحاة ص٨٤ الأستاذ/ علي النجدي ناصف / الناشر عالم الكتب

٣ ـ نفسه ص٨٦

٤ ـ انظر كتاب سيبويه وشروحه د. خديجة الحديثي من ص٣٣: ٣٩، وسيبويه إمام النحاة، للأستاذ علي النجدي ص٩٠: ٩٩، والمدارس النحوية د. شوقي ضيف ص٦٣

عن طريقهما أقوال أبي عمرو بن العلاء ، ولا أظن أن سيبويه لم يتصل بأبي عمرو أو لم يأخذ عنه، لأنه أخذ عن عيسى بن عمر... ومن المحتمل أنه اتصل به أو حضر حلقات الدرس التي كان يعقدها، واستفاد من آرائه في الكتاب ... ولم يكن سيبويه قد طلب النحو أول ما طلب بل طلب الآثار والفقه ... ومن هذا نستطيع أن نقول: أنه درس على حماد بن سلمة بن دينار الفقه والحديث... ولم تقتصر دراسة سيبويه على اللغة والفقه والحديث، بل درس علما آخر هو علم النحو، فلزم عيسى ابن عمر الثقفي... وبعد أن فارق عيسى بن عمر لزم العالم الجليل الخليل ..."[1]

إن الوقوع تحت وطأة الأخبار التاريخية والتأثر بما أشاعته دون تدقيق فيها، أو النظر في دقائقها، أو مناقشة ما تنطوي عليه جعلها من قبيل المتواتر الذي لا يرد، أو المقدس الذي لا يقبل فيه نقدا يفضي لنقض!

وسوف يأتي المبحث الأخير ليحاكم هذه المرويات محاكمة نقدية، لنتعرف قدرها من حيث الثبوت أو العدم وأيضا مناقشة ما ترتب عليها من نتائج أضحت أحكاما قاطعة في ميدان الدرس النحوي.

١ ـ كتاب سيبويه وشروحه ص٢٩: ٣٣

المبحث الثاني

تقييم الأخبار التاريخية في ترجمة سيبويه ، وفيه مطالبان:

المطلب الأول ـ أخبار تتصل بسيبويه نفسه.

في هذا المطلب سأسلط الضوء على خبرين فقط من أخبار كثيرة وردت في تراجم سيبويه، محاولا تحليل هذين الخبرين، وبيان صلتهما بسيبويه، ومن ثم الوقوف على ما ترتب على الخبرين موقفا نقديا للقناعات التي بُنِيت على هذين الخبرين.

أولا. الخبر الأول(اتصال سيبويه بحماد بن سلمة المحدث).

أول هذين الخبرين الذي يجب أن نعرضه له بالتحليل ومن ثَم بالنقد ، ذلك الخبر الذي يترجم صلة سيبويه بحماد بن سلمة المحدث، ومن ثَمَّ تصوير سيبويه بكونه طالب العلم المجتهد الذي ضرب في كل علم من علوم الثقافة الإسلامية بسهم، ونال منها حظا وافرا.

ذلك الخبر الذي أخذ منه الرواة القدماء، والكتاب المعاصرون فكرة انطلاق سيبويه وبداية اشتغاله بالعلوم كافة، شرعية كانت أم لغوية، حتى انفراده بعلم النحو حتى بلغ فيه كمال الطلب.

تقول والرواية:

"ذكر نصر بن علي قال كان سيبويه يستملي على حماد فقال حماد يوماً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء: فقال حماد: لحنت يا سيبويه: ليس هذا حيث ذهبت، فليس هنا استثنت. فقال سيبويه لا جرم لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً فطلب النحو ولزم الخليل"[١]

١/ انظر الرواية في كتب التراجم والتاريخ، ومن ذلك : طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص٦٦ ، ونزهة الألباء لأبي البركات الأنباري ، وإنباه الرواة للقفطي ج٢: ٣٠ ، وبغية الوعاة للسيوطي ج١: ٥٤٨ ، طبقات ابن قاضي شبهة ص٤٦٢ ،و نفح الطيب للمقري ص٥ :٥٢٥

وهذا الخبر الذي تواتر في الكتب التي ترجمت لسيرة سيبويه، وصوَّرته طالبًا للعلم مبتدأ بالحديث والفقه في مجلس حماد بن سلمة، وأنه استملى عليه الحديث، فلما لَحن . على الرواية السابقة . خرج من عنده طالبا علما لا يُلَّحنه معه أحد، فلزم الخليل بن أحمد . هذا الخبر الذي يتعلق به دارسو النحو، خبر لا أصل له، ولا يمكن أن يكون مصدرا لقناعة في شخص سيبويه، ولا ملمحا بارزا في تاريخه. على ما يترسخ في أذهان الدارسين عن تلكم الصلة، وعن ذلكم الأثر!

ذلك لأن الخبر الذي يدور في ترجمة سيبويه وتاريخه لا يمكن أن يكون له ظل في وجود أو أثر في واقع، أو حضور في حياة حماد بن سلمة أو حياة سيبويه؛ فكتب تراجم المحدِّثين التي سجلت بدقة حياة أصحاب الحديث، ومنهم حماد بن سلمة لم تشر من قريب أو بعيد لهذه الرواية التي يرددها النحويون قديما، ويحتفي بها النحويون حديثا[1].

أما الحديث الذي ورد في خبر لقاء سيبويه بحماد بن سلمة، فروايته غريبة غرابة تقدح في هذا اللقاء من أساسه، فهي رواية ليست موجودة في كتب الحديث، بل لا تُعْرف عند المحدثين مطلقا، فلم ترو . عندهم . مرة واحدة بهذا اللفظ الذي يرويه النحاة، اللهم إلا عند من ابتكرها ابتكارا من عقله.

والرواية المروية في هذا الحديث . مع ضعفه بالإرسال . خلاف ذلك تماما، ومما ورد ما يأتي:

١/ انظر : سير أعلام النبلاء ٧:٤٤٥ ، و تهذيب الكمال في أسماء الرجال المزي – جمال الدين أبو الحجاج المزي) ج٧ : ص: ٢٦٨ ومن تاريخ النحو العربي للأستاذ سعيد الأفغاني ص١١٣

(١) عن مبارك بن فضالة عن الحسن ، قال رسول الله – ﷺ – : " ما من أحد من أصحابي إلا ولو شئت لأخذت عليه في بعض خلقه غير أبي عبيدة بن الجراح "[١]

وواضح أن الرواية ليس لها صلة بليس التي استثنت (على ما نسب لحماد بن سلمة). وليس لها صلة بأبي الدرداء على ما روى الخبر الرواية المزعوم التي تتردد في كتب تاريخ النحو . ومثلها الروايتان الآتيتان.

(أ) ما خرَّجه السيوطي عن الحسن مرسلا ، ونصه : " ما من أحد من أصحابي إلا ولو شئت لأخذت عليه في بعض خلقه (بالضم) غير أبي عبيدة بن الجراح ".

(ب) وأخرج الحاكم عن المبارك بن فضالة، عن الحسن مرفوعا. وقال: هذا مرسل غريب، ورواته ثقات.

ونصه:" ما من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه في بعض خلقه؛ غير أبي عبيد ة بن الجراح).[٢] ووسمه بالضعيف.

بيد أن الدارسين المعاصرين لا يكتفون بذكر رواية باطلة لا أصل لها حتى يثبتوا لسيبويه تاريخا مجيدا، و أنه من طلبة العلم الراسخين الذين . على نحو ما يروي الزبيدي في وصفه . تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فيه بسهم مع حداثة سنه وبراعته في النحو [٣] بل يضيفون عليها رواية

١/ الإصابة في معرفة الصحابة /ابن حجر العسقلاني١١٩٢٠/ وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير/ المؤلف / الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي دار النشر/ مكتبة الإمام الشافعي – الرياض – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م الطبعة: الثالثة٢\٦٩٢

٢ في "المستدرك" (٣/ ٢٦٦) وانظر الكتاب: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٤٥٤\١٩

٣ ـ طبقات النحويين واللغويين ص٦٧

أخرى لا تقل عن مثيلتها ضعفا وبطلانا، بل ويزيدون عليها من خيالهم ما يجعلها مستندا في طلب سيبويه العلوم الدينية إضافة للعلوم اللغوية ، فيقول الأستاذ علي النجدي ناصف بعد رواية خروج سيبويه غاضبا من حلقة حماد متوعدا بدراسة علم لا يلحنه معه أحد .

يقول الأستاذ :

" ويبدو أن سيبويه ظل مع ذلك على صلته بحماد يأخذ منه الحديث أو يرجع عند الحاجة إليه فيه على الأقل ، ويروون في ذلك أنه جاء يوما إليه ، فقال: أحدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رعُف (بضم العين) في الصلاة ، فقال حماد : أخطأت ، إنما هو رعَف (أي بفتح العين).."[1] .

وبغض النظر عن الطريقة التي تروي بها كتب التراجم الخبر ، مصورة حمادا كأنه يترصد سيبويه، وينتظر لحنه حتى يوبخه باللحن، وبغض النظر عن طريقة عرض الخبر الذي يصور حمادا كأن في نفسه شيئا من براعة سيبويه ، الذي لم يكن قد بَرَعَ بعد، بل تجعله يدفع سيبويه لدراسة النحو دفعا بقوله (أخطأت) ، ومصورًا سيبويه كأنه طالب العلم المتمرس الباحث عن المعارف والعلوم ، وبغض النظر عن كون حماد محدثا يتركز عمله في السند والرواية لا في اللغة والنحو ، فإن هذه الرواية لا أصل لها عند المحدثين أيضا ،بل هي رواية مكذوبة ، لا يمكن لحماد أن يتجاهل وَهَن الرواية ، ووهن سندها ، ويترك تصحيحه، ليلتفت للحن سيبويه الذي لا ينتهي.

وهذ الحديث الذي ورد في ذلك الخبر ساقط السند، ولا أصل له بهذه السند، فهشام بن عروة لم يروِ عن أبيه هذا الحديث ، بل رُوِيَ الحديث

---

١ ـ انظر نص الرواية في طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص٣٨، وطبقات ابن قاضي شبهة ٢٠٧

بطرق عدة ليس فيها هشام عن أبيه ، فقد جاء في كتاب (البدر المنير) لسراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري ابن الملقن روايات ثلاثة للحديث ، هي :

(أ) رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :"**من رعف في صلاته فليرجع فليتوضأ وليبن على صلاته.**

قال . والكلام لابن الملقن . في إسناده أبو بكر الداهري عبد الله بن حكيم وهو متروك ، وقال ابن الجوزي في علله لا يصح ، قال السعدي : "الداهري هذا كذاب مصرح" ، وقال ابن حبان : "يضع الحديث على الثقات "[١] . وفي مصنف عبد الرزاق بإسناد جيد عن علي قال : "إذا رعف الرجل في صلاته أو قاء فليتوضأ ولا يتكلم وليبن على صلاته " ثم قال : هذا موقوف جيد، ثم قال: وقوله: رعف مثلث العين حكاهن ابن مالك في مثلثه . [٢] فالحديث ليس فيه هشام عن أبيه، ثم يصرح شارحه بالتثليث في عين (رعف)

(ب) وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "الحديث " رواه الدار قطني في سننه، والبيهقي في خلافياته من حديث سليمان بن أرقم عن عطاء عن ابن عباس وهو حديث ضعيف، فإن سليمان هذا متروك الحديث.[٣]

(ج) روي أنه ﷺ قال:" من قاء أو رعف أو أمذى في صلاته، فلينصرف، وليتوضأ، وليبن على صلاته ما لم يتكلم " قال: وهذا الحديث مروي من طرق، إحداها: من رواية عائشة رضي الله عنها، رواه ابن ماجة

---

١ ـ كتاب البدر المنير ج٤ ص١٠٨

٢ ـ نفسه

٣ نفسه ص١٠٧

في سننه من رواية اسماعيل بن عياش عن ابن جريج عن ابن مليكة عن عائشة مرفوعا، ورواه الدار قطني من حديث إسماعيل أيضا قال: حدثني عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج عن عبد الله بم مليكة عن عائشة ... [1]

ومما سبق يتبن أن رواية هشام عن أبيه لم ترد في طرق الحديث البتة، ثم إن طرق الحديث جميعا متروكة بضعف بعض رواته أو بإرساله، وهو أمر لا يمكن أن يمر على رجل مثل حماد بن سلمة على ما كان له من علو في تصحيح حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم، أضف إلى ذلك خلو ترجمة حماد بن سلمة من أي أثر لصلته بسيبويه، أو هذه الروايات المتصلة به، وهاتان الروايتان يبنى عليهما تاريخ طلب سيبويه العلم، وقد تبين منزلتهما ومنزلة من يرددهما دون وعي بحقيقتهما.

وعليه، فإن الباحث يستطيع أن يخرج بنتيجة واحدة : هي لا وجود لصلة تلمذة بين حماد بن سلمة المحدث وبين سيبويه، وذلك ؛ لأن كل ما ورد في الخير من مرويات حديثية ليست أحاديث متداولة بين المحدثين، مما يدل على أن الخبر نفسه موضوع وضعا، وأن الأحاديث التي وردت في ذلك الخبر موضوع من واضع لا علم له بعلم الحديث.

١ ـ ـ كتاب البدر المنير ج٤ ص١٠٨

ثانيا: الخبر الثاني:(تلمذة سيبويه على عيسى بن عمر).

ثاني تلك الأخبار التي تحتاج إلى النظر لها نظرا نقديا هو ما أوردته كتب التراجم، وأوردته كتب المعاصرين من صلة سيبويه تلميذا على عيسى بن عمر الثقفي، ناقلا عنه، ومتعلما على كتبه، فجاء الخبر في كتب التراجم، هكذا:

" فلزم عيسى بن عمر الثقفي الذي كان أول الأساتذة ... " [١] .

وتعمق الدكتورة خديجة الحديثي ذلك الخبر بالشرح والتوضيح، فتقول:

" ويذكر المؤرخون أن أول أساتذته عيسى بن عمر الثقفي المتوفي سنة ١٤٩ هـ ولا يمكن أن يسمى عيسى أستاذه حتى يكون قد أخذ عنه العلم المختص وأدركه. ولا يكون قد أخذ عنه إلا وهو يعقل، ولا يعقل حتى يكون رشيدا "[٢]....

وتقول أيضا . في إصرار عجيب .:" ولم تقتصر دراسة سيبويه على اللغة والحديث والفقه، بل درس علما آخر هو علم النحو، فلزم عيسى بن عمر الثقفي الذي كان أول الأساتذة الذين ذكرت الروايات أنه درس عليهم "[٣].

---

١ ـ انظر. أخبار النحويين البصريين ص٣٧ والفهرست ص٢٧٦ ونزهة الألباء ص ٣٩ ووفيات الأعيان ج٣ ص ١٥٦ وبغية الوعاة ج٢ ص٢٩٩ ونفح الطيب ج٥ ص٢٩٩ وطبقات ابن قاضي شبهة ص٤٦٢

٢ ـ كتاب سيبويه وشروحه ص٢٠ بغداد ١٩٦٧ دار التضامن بغداد

٣ المصدر السابق نفسه.

وذكر الأستاذ علي النجدي ناصف ذات الخبر، فقال:" وأما شيوخه في العربية فهم كما جاء في بغية الوعاة: الخليل ويونس وأبو الخطاب الأخفش، وعيسى بن عمر " ثم ذكر تعريفا عن كل واحد منهم [1]

وهذا الخبر الذي جعل عيسى بن عمر أستاذا لسيبويه؛ ليضيف إلى سيرته بعدا جديدا، وعمقا آخر في الثقافة العربية ـ من أخطر الأخبار التي سجلت تاريخ سيبويه، إذ إن الدوران معه إثباتا ونفيا يقدح فيما أضحى عند الكثيرين ثوابت لا خلاف عليها.

أما الخبر في ذاته، فليس في تاريخ سيبويه ما يعضده، أو يقويه بإثبات أو تدليل تاريخي يؤكد جلوس سيبويه لعيسى يتعلم منه سوى خبر وحيد، وهو خبر لو اعتمدناه في سيرة سيبويه فإنه سيؤول إلى الطعن مباشرة في نسبة الكتاب لصاحبه ، وهو طعن لا يتحمله التراث العربي، ولا التراثيون العرب.

وقد أوردت كتب التراجم هذا الخبر، فورد هكذا:

" وقد قيل إنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمى بالجامع، وبسطه وحشّى عليه من كلام الخليل وغيره، وأنه كان كتابه الذى اشتغل به، فلما استكمل بالبحث والتّحشية نسب إليه"[2]

ويروى أن الخليل سأله لما فارق عيسى بن عمر عن مصنفاته ، فقال سيبويه :

" قد صنف نيفا وسبعين مصنفا في النحو، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عليها عنده آفة، فذهبت ولم يبق منها في الوجود سوى

١ ـ سيبويه إمام النحاة ص٩٠ على النجدي ناصف.

٢ إنباه الرواة للقفطي ج٢ ص ٣٤٦/ وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٦

تصنيفين: أحدهما اسمه الكامل وهو بأرض فارس عند فلان، والجامع وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه عليك، وأسألك عن غوامضه..."[١] .

فالخبر يدل دلالة واضحة أن كتاب سيبويه هو كتاب عيسى ابن عمر، زاد عليه ما أخذه من الخليل ثم انتسب إليه، وهي نتيجة قاسية وخادعة، لكنها تدخلنا حقيقة في دائرة واسعة من الجدل الذي لا ينتهي .

غير أن القراءة الفاحصة لهذا الخبر الذي أورده القفطي في الإنباه، وأورده ابن خلكان في وفيات الأعيان تسوقنا لنتائج تجعل أخبار سيبويه كافة بله تاريخه المسطور في كتب التراجم، القابع في أذهان النحويين على المحك.

فخبر صلته بعيسى بن عمر (هذا إن ثبت) ينفي أو يؤكد عدم صدق الخبر الأول الذي ناقشته ونفيته، خبر صلته بحماد بن سلمة، فسيبويه كان تلميذا لعيسى بن عمر ، فكيف يخرج من حلقات حماد ليطلب علما لا يلحنه معه أحد، فيلحق بحلقة الخليل؟

ثم الخبر يقول يروي أن الخليل يسأل سيبويه عن عيسى بن عمر وكتبه فيجيبه، أوليس الأولى أن يكون الخليل عالما بعيسى وكتبه وشأنه ومآله وليس تلميذه الصغير ؟ أم هي رغبة في إبراز صورة سيبويه، وجعله طالبا مثاليا، ليسهل تصويره على أنه إمام للنحاة، وكتابه قرآنا لنحوهم!

أما إذا تركنا هذا وذهبنا لنحلل خبر تلك الصلة القائمة بين عيسى بن عمر وسيبويه ، لوجدنا أنفسنا بين أمرين أحلاهما مر، فإما أن نذهب مع من ذهبوا إلى إثبات تلك الصلة العلمية، فنثبت معها أن كتاب سيبويه هو كتاب عيسى بن عمر كان يتتلمذ به على الخليل ويضيف فيه كلام الخليل ثم نسبه إلى نفسه، وهذا نتيجة تذهب بسيبويه وتاريخه فضلا عن كتابه.

---

١ ـ إنباه الرواة للقفطي ج٢ ص ٣٤٧

وإما أن نذهب في ناحية أخرى مع خبر آخر أوردته كتب التراجم التي سجلت تاريخ وفاة عيسى بن عمر وتاريخ ميلاد سيبويه، لنفاجأ بأن عيسى مات عام ١٤٩ هـ أي قبل ميلاد سيبويه بعام كامل، وميلاد سيبويه في سنة ١٥٠ هـ [١]. يقول صاحب الوفيات:" وتوفي سنة تسع وأربعين ومائة، رحمه الله تعالى".[٢]

وهذه الوجهة تنفي عن سيبويه أخذه كتاب عيسى بن عمر ونسبته لنفسه، لكنها لا تنفي الشك في شأن الكتاب، إذ فيه ما يقرب من عشرين نصا نقلا عن عيسى بن عمر بعضها فيه قوله حدثنا ، على نحو من النصين الآتيين :

(١) ما جاء في الاستثناء، ذا باب النصب فيما يكون مستثنى بدلا.

قال سيبويه:" حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق بعربيته يقول: ما مررت بأحد إلا زيدا، وما أتاني أحد إلا زيدا. وعلي هذا ما رأيت أحدا إلا زيدا فينصب على غير رأيت وذلك أنك لم

---

١ (مراتب النحويين)) لأبي الطيب اللُّغَوي (ص ٣٣)، ((طبقات النحويين واللغويين)) لمحمد بن الحسن الزُّبَيدي (ص ٤٠)، ((تاريخ العلماء النحويين)) للتَّنُوخي (ص ١٣٥)، ((وفيات الأعيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٧/ ٢٠٠)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٣/ ٤١١)، ((البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة)) (ص ٢٢٧)، ((بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨).تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام/شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. حققه وضبط نصه وعلق عليه: د بشار عوّاد معروف./ وانظر الأعلام للزركلي/ معجم المؤلفين ج٨/ ٢٩/ تاريخ الأدب العربي.. كارل بروكلمان،. "عيسى بن عمر الثقفي"/ سير أعلام النبلاء الذهبي – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ج٧: ٢٠٠

٢ / وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٨٨

تجعل الآخر بدلا من الأول، ولكنك جعلته منقطعا مما عمل في الأول وعمل فيه ما قبله كما على العشرون في الدرهم اذا قلت عشرود درهما [١]

(٢) ومن مثل ما جاء في :إعراب ضمير الفصل :

قال سيبويه:" وقد جعل ناس كثير من العرب هو وأخواتها في هذا الباب بمنزلة اسم مبتدأ وما بعده مبني عليه، فكأنك تقول: أظن زيداً أبوه خير منه، ووجدت عمرا أخوه خير منه، ... وحدثنا عيسى أن ناساً كثيراً يقرءونها :(وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون) وقال الشاعر قيس بن ذريح :

تبكي على لبني وأنت تركتها وكُنتَ عَليها بالمَلا أَنْتَ اقْدَرُ.

وكان أبو عمرو يقول : إن كان لهو العاقل . [٢].

فإما أن ننفي صلة سيبويه بالكتاب الكبير الذي قام عليه أمر النحو وشأن النحاة بهذا الخبر الوارد في كتب التراجم ، أو نحذف من تاريخ سيبويه قصة تلمذته على عيسى بن عمر.

وفي الحالين لن تكون النتيجة فيها شيء من الرضا!

ولقد ناقشت الدكتورة خديجة الحديثي تلك الأخبار في محاولة التعرف على السنوات التي قضاها سيبويه في دنيا الناس، لكنها في ظل مناقشتها لما أورده المترجمون والمؤرخون من تواريخ، ذهبت لإثبات ما ينفي قطعا أن يكون سيبويه تتلمذ على يد عيسى بن عمر، تقول: "ونرجح أن سيبويه توفي سنة ١٨٠ هـ استنادا لما ذكرنا في سنة ولادته، وإلى ما ذكره القدماء أنه مات قبل الكسائي ويونس بقليل، حيث مات الأول سنة ١٨٣هـ ، ومات الثاني سنة ١٨٢ هـ أو ١٨٣هـ . ويؤيد ذلك أن أبا بكر الزبيدي

١ سيبويه ٢: ٣١٩

٢ سيبويه ج٢ ص٣٩٢ – ٣٩٣

(٣٧٩هـ) والقفطي (المتوفي بعد الخمسمائة) وهما أقدم من ترجم لسيبويه يقولان: توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، سنة ثمانين ومائة. كما ذهب إلى ذلك ابن قاضي شبهة واعتبره التاريخ الصحيح، يقول: توفي سنة ثمانين ومائة عن بضع وثلاثين سنة، وقيل عن ثلاث وثلاثين سنة"[1] وهذا التحليل من الدكتورة خديجة الحديثي الذي أقرت فيه ـ داعمة رأيها بكلام المؤرخين . بوفاة سيبويه سنة مائة وثمانين عن ثلاث وثلاثين سنة، ينفي تلمذة سيبويه على عيسى بن عمر نفيا قاطعا، إذ يصير ميلاد سيبويه على ذلك ما بين عامي١٤٧ إلى ١٥٠ هـ ، أي إما قبل موت عيسى بعامين فقط ، أو بعد موته بعام كامل، إذ إن موت عيسى كان في عام ١٤٩هـ ، وهذا معناه أن سيبويه لم ير عيسى بن عمر الثقفي يوما، فضلا عن كونه تتلمذ له أو سمع منه كما يصر المصرون على ذلك . ولا ريب أن هذه النتيجة تضع علامات استفهام كثيرة عن اثنين وعشرين نقلا في كتاب سيبويه عن عيسى ابن عمر الثقفي!

أتوقف عند هذه الرواية من هذا النوع من المرويات حتى لا يطول بنا البحث أكثر من ذلك.

١ ـ كتاب سيبويه وشروحه د. خديجة الحديثي ص٢٣ و ٢٤

المطلب الثاني

مرويات تتعلق بكتابه.

وهذه مجموعة من المرويات تتعارض في أحداثها تعارضا ينفي حدوث الروايتين معا، ثم إن تعارضهما ربما ينفي حدوث أحداث روايات أخر، ومن ذلك:

المرويات التي تتعلق بالكتاب، فهي كثيرة كثرة عجيبة، وكلها تنسج خيطا واحدًا، يسير في مدح الكتاب والثناء عليه وعلى صاحبه، وأنه أول وأعظم عمل أنتجته قريحة إنسان في تلك الحقبة.

يقول الأستاذ علي النجدي:" كأنَّ كتاب سيبويه في النحو كان هو الحقيقي في رأيهم أن يسمى بالكتاب، أما غيره فلا ينبغي أن يسمى به إلا على ضرب من التجاوز والمجاملة" "١ لكن المرويات مع كثرتها تتعارض تعارضا لا يمكن الجمع بينها، مع ما يجمعها من ضعف السند وانقطاعه! وعلى الرغم من امتداح الكتاب بهذه الطريقة التي جعلته (الكتاب حقيقة وغيره مجازا) إلا أنه لم يستطع أن ينكر ما أحاط بالكتاب . كما أحاط بصاحبه . من الجهالة والغموض ، كما لم يستطع أن يخفيها أحد من دارسيه، فيقول د. خالد عبد الكريم :

"ولا ندري على وجه الدقة متى بدأ سيبويه تأليف كتابه، وكم من الزمن استغرق التأليف، ومما لا شك فيه أن كتابا من هذا النوع يحتاج إلى سنوات طويلة من الجمع والملاحظة والتدقيق، وربما يكون سيبويه قد بدأ جمع مادة كتابه في حياة شيخه الخليل". [٢]

---

١ ـ سيبويه إمام النحاة ص١٢٩

٢ شواهد الشعر في كتاب سيبويه الدكتور خالد عبد الكريم ص٣٩ الدار الشرقية للطبع والنشر الطبعة الثانية ١٤٠٩ / ١٩٨٩

العبارة نفسها رددها الأستاذ عل النجدي، فقال:

" لا نعرف متى بدأ سيبويه يصنف كتابه، ولا متى فرغ منه جملة وتفصيلا".[١]

لعل أهم أخبار تاريخ الكتاب تلك التي تتعلق به من حيث ظهوره في حياة سيبويه من عدمه، وطريقة معرفة الأخفش به كونه الطريق إليه. فكُتُبُ التراجم لا تستقر في شأن هذا الأمر على حال، وكأن لسان حالها يوازن بين أمرين، يحاول أن يتبين أفضلية أحدهما! أتقرير أن الكتاب ظهر فجأة بعد موت صاحبه أم أنه كان معروفا مشهورا في البصرة في حياة سيبويه؟!

فعلى حين تقرر بعض الأخبار أن سيبويه:" لم يقرأه على أحد، ولم يقرأه عليه أحد "[٢] وأن يونس لم يكن حتى قبيل موته يعلم بخبر الكتاب، فلما أُخْبِرَ به، قال:" أظن هذا الغلام يكذب على الخليل!" [٣].

ثم يأتي خبر ثالث يدعي أن الأخفش الأوسط كاد أن يدعي الكتاب لنفسه مستغلا هذه السرية التي تحيط بالكتاب، فقال القفطي:" ويقال إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه . استحسنه كل الاستحسان، فيقال: إن أبا عمرو الجرمي وأبا عثمان المازني . وكانا رفيقين . قد توهما أن الأخفش قد هَمَّ أن يدعي الكتاب لنفسه "[٤].

فالكتاب على هذا الخبر ظل سرا خاصا بسيبويه، ولم يطلع عليه أحد، وأنه ظل إلى أن توفي فَعُثر عليه، ثم أُخْرِجَ للناس على حين غرّة! لكن

---

١ سيبويه إمام النحاة ص١٢٩

٢ـ إنباه الرواة ج٢ ص٣٩

٣ أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٥٠/١

٤ أخبار النحويين البصريين ص٥٠

الأخبار المروية لا تدعنا وهذه النتيجة . على ما بها . لكنها ما تلبث أن تعيدنا لنقطة البدء من جديد!

فيأتي خبران أخران يثبتان ما يناقض ما سبق نقضا فجا ، فيزعمان أن الكتاب كان معروفا مشهورا بين الناس، فيُروى عن الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة قوله: "كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرضه عليَّ وهو يرى أني أعلم منه . وكان أعلم مني . وأنا اليوم أعلم منه" [١] .

فالخبر يزعم أن الكتاب كان معروفا ليس سرا ، ولا ريب أن خبرا كهذا الخبر لا يمكن أن يظل في مثل تلك البيئات العلمية مقصورا على شخص بعينه، فإنْ كان ثَمَّة كتاب يشتغل به سيبويه، ويعمل على تأليفه فلا معنى لتلك السرية المزعومة ، بل يأتي خبر آخر ليس له من غرض غير تمجيد صاحب الكتاب تمجيدًا أناساه موضوع سرية الكتاب الذي لم يُعْرَف وَيُكْشَف إلا بعد موت صاحبه، فيأتي خبر المناظرة التي انتصر فيها سيبويه ، وهو غلام (بتعبير رواية يونس) على الأصمعي راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر ، تقول الرواية:

" عن الزبيدي، قال: حدثنا مروان، حدثنا الرياشي قال: رأيت سيبويه والأصمعي يتناظران، قال يونس بن حبيب: الحق مع سيبويه، وقد غلب ذا . يعني الأصمعي . بلسانه. قال النظام: إنه عرض على الأصمعي الأبيات التي وصفها سيبويه في كتابه، ففسرها على خلاف ما فسره، فبلغ ذلك سيبويه، فقال: لا ناظرته إلا في المسجد الجامع، قال الأصمعي: فصليت يوما في الجامع ثم خرجت فتلقاني في المسجد فقال لي: اجلس يا أبا سعيد. ما الذي أنكرته من بيت كذا وبيت كذا، ولمَ فَسرت على خلاف ما يجب؟،

١ ـ انظر إنباه الرواة ج٣ ص٣٥٠ وطبقات النحويين للزبيدي ص٦٧ ومراتب النحويين واللغويين لأبي الطيب بص٦٩

فقلت لـه(أي الأصمعي): ما فسرت إلا على ما يجب، والذي فسرته أنت ووضعته خطأ، تسألني وأجيب، ورفعت صوتي، فسمع العامة فصاحتي، ونظروا إلى لكنته، فقالوا: لو غلب الأصمعي سيبويه فسرني ذلك، فقال لي: إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى قول هؤلاء. ونفض يده في وجهي ومضى، ثم قال الأصمعي: يا بني فوالله لقد نزل بي منه شيء. وددت أني لم أتكلم في شيء من العلم " [1] .

وعلى الرغم من ركاكة الخبر، وضعف صياغته ، فالخبر يفيد أن كتاب سيبويه كان معلوما بين العامة ! ولم يكن سرا مقصورا على سيبويه، ولا على الأخفش، بل كان الأصمعي يعلمه، ويُقَيِّمَ ما فيه من أشعار! .

والنتيجة أن أخبار كتاب سيبويه تتناقض بين دعوى السرية والعلانية، ثم تضع علامات كثيرة من الاستفهام، تولد للقارئ الباحث في تاريخ سيبويه حيرة لا تنتهي! فالتعارض بين أخبار الكتاب لا تتوقف عند كون الكتاب معروفا أم مجهولا، بل يمتد إلى منطقة أخرى أكثر غرابة وحيرة، وهي: متى كتب سيبويه كتابه؟ ومتى انتهى منه؟ وكيف وصل للأخفش حتى استحسنه، وهمَّ أن يدعيه (على زعم رواية الجرمي والمازني)؟ فالذي يقرأ هذه الروايات جميعا وينظر لها نظرة جامعة، لابد أن يخامره شك ما في كل ما تذكره هذه الروايات ، وهو ما حدا ببعض المعاصرين أن ينتحلوا التأويل والتبرير لتجميل مثل هذه الروايات حتى تمر وتقبل ، فرواية الأصمعي والأخفش السابقتين لا يمكن أن تفسرا إلا على أن سيبويه بدأ تأليف كتابه في حياة الخليل، لكنه لم يكن انتهى منه بعد، بل كان مستمرا في تأليف أبوابه وموضوعاته، هذه النظرة لزمن تأليف الكتاب هي الكلمة الفاصلة عند بعض

١ ـ انظر الرواية في طبقات النحويين للزبيدي ص١٨٥، ومعجم الأدباء لياقوت ج١٦ ص١٢٤

المعاصرين الذين حاولوا تجميل كل رواية ترفع من شأن الكتاب وصاحبه وتجعله يقينا لا يعتريه شك ، لكن بعضهم لم يلتفت إلى أن ترجيحه ينسف فكرة الكتاب وصاحبه وشيخه الخليل جملة واحدة، هذه نتيجة تلمع قسماتها في نص الدكتورة خديجة الحديثي ، فتقول: ــ متكئة على بعض المرويات ـ :" والظاهر أنه أَلَّفَ بعضه في حياة الخليل، ولكنه لم يتمه، بدليل تعقيبه على بعض المواضع بقوله رحمه الله ... ولما كان الكتاب لم يظهر ولم ينتشر إلا بعد وفاة سيبويه... ولما كان بين وفاته ووفاة الخليل عشرون عاما تقريبا، فقد توفي الخليل عام ١٦٠هـ، وتوفي سيبويه عام١٨٠هـ، فمن المعقول أن يكون سيبويه قد ألف قسما منه في حياة الخليل، وألف الفصول الباقية وأتم الكتاب بعد وفاته خلال هذه الأعوام العشرين "[١].

فالدكتورة تجزم بأن الكتاب بدأ تأليفه في حياة الخليل وبعده فيما يزيد على العشرين عاما! ومع محاولة الدكتورة تأييد هذا الاتجاه ، ومنح سيبويه الوقت الكافي لإخراج كتابه ،إلاأنها وقعت في معضلة أكبر يترتب عليها نتائج مؤثرة في تاريخ النحو كله، فلو أخذنا بما أخذت به الدكتورة خديجة في وفاة الخليل ووفاة سيبويه وميلاده ،وهو ما أقر به الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه للكتاب إذ قال :" :"لا ريب أنه ألف بعد موت الخليل (١٦٠هـ)لأن مخطوطات الكتاب نجد فيها كثرة التعقيب على قول الخليل بعبارة "رحمه الله"[٢] فالقول بوفاة الخليل عام ١٦٠ هـ ، والجزم بميلاد سيبويه بين عامي ١٤٧ أو ١٥٠ هـ ، يوقعنا في معضلة كبرى هي أن عام وفاة الخليل لم يكن سيبويه جاوز العاشرو من عمره على ميلاد ١٥٠ هـ ،

١ ـ كتاب سيبويه وشروحه ص٦٧ و٧٧

٢ ـ الكتاب لسيبويه، مقدمة الأستاذ هارون ص٢٤

أو الثاثة عشرة على كون ميلاده ١٤٧هـ ، أي أن فكرة تلمذة سيبويه على الخليل لا يمكن أن تكون واقعة من أصلها، فضلا على أن يكون قد سمع منه، أو رافقه في ليل أو نهار، وبه تسقط كل النتائج التي استقرت وتربت عليها أجيال عديدة تعتقد أن سيبويه تلميذ الخليل الخاص، وأن سيبويه كتب كتابا في نحو الخليل ! هذا من ناحية (أي أن الكتاب أُلف قبل موت الخليل).

لكن الأخبار لا تتركنا وما استقر . وإن أضرت بغيرها . ولكنها تفتح بابا جديدا للشك والريبة، وتقرر أن سيبويه بدأ كتابه كله جملة وتفصيلا بعد موت الخليل بن أحمد، فتروي كتب التراجم رواية عن نصر بن علي بن نصر الجهضمي قال:" لما أراد سيبويه تأليف كتابه قال لأبي: تعال نحيي علم الخليل "[١]

إذا ما خرجنا حائرين مضطربين ، نقلب كفينا على ما كنا نظن أنه من ثوابت تاريخنا ، فإذا بنا لا ندري ما الكتاب الذي شغل الدنيا وأتعب الناس ،فلا نستطيع أن نجزم بزمن أُلف فيه ، ولا نستطيع أن نجزم في أي حال كان عليه من السرية أو العلانية. أقول : إذا خرجنا من تلكم الحيرة التي تضطرنا في بعض جوانب مناقشتها أن نتلفظ مُعَرِّضين بمصير النقول التي وردت في كتاب سيبويه عن عيسى بن عمر الثقفي . وقد أثبتت المناقشة أن سيبويه لم يره ، فضلا عن أن يكون قد تتلمذ له . أو نرى التاريخ المروي في وفاة الخليل بترجيح الدكتور خديجة الحديثي، ومن قبلها شيخ المحققين الأستاذ هارون نسفا لتلمذة سيبويه على الخليل، وبالتالي نسفا لفكرة الكتاب من أساسه ! فإن ما بقى من مناقشة في شأن الكتاب سيدخلنا

١ ـ انظر. مراتب النحويين ص٦٧، وأخبار النحويين البصريين ص٣٨، طبقات النحويين ص٧٧، بغية الوعاةج٢ ص٢١١.

فـي متاهـة أخـرى قـد تسـتدعي الباحـث الموضـوعي أن يُعَـرِّضُ بـبعض الأحداث أو ينكر بعضها، فالروايات والرؤى (الآراء) تذهب إلى أن الأخفش كان الطريق إلى كتاب سيبويه ، وأنه أول من قرأه على أبي عثمان المازني، وأنـه قرأه علـى الكسـائي فدفع لـه خمسـين دينـارا ، وهذا الخبـر لـيس لـه مـن مقدمـة أو تمهيد يمهد إليه ويقنـع بما فيه، بل يفاجئنا أبو البركات الأنباري بقولـه :"...إنـا لمـا مـات سيبويه قرئ الكتـاب علـى الأخفش ..." مؤكدا قبل هذا الخبر أن سيبويه لم يقرأه على أحد ولم يقرأه أحد عليه "[1] لكن على كثرة البحث في مرويات سيبويه والأخفش لم نلق أو تلقني رواية واحدة ولو ملفقة مصنوعة تحكي الوسيلة التي حصل بها الأخفش على كتاب سيبويه، أو المكـان الـذي وجـد فيـه الأخفـش كتـاب سـيبويه ، والـذي ورد كثيـرا فـي روايـات عـدة أن سيبويه خـرج إلـى العـراق لمنـاظرة الكسـائي فـي سـتة ١٧٠ تقريبـا علـى مـا قدره الأسـتاذ علـي النجـدي ناصـف، يقـول:" ولا نعـرف متـى كانـت هـذه المنـاظرة علـى التعيـين، ولكـن المعـروف أنهـا وقعـت فـي خلافـة الرشـيد، وفـي وزارة خالـد بـن يحيـى البرمكـي، أي سـنة ١٧٠هـ أو بعـدها"[2]، ومن تحقيق مرويات ميلاده ووفاته توصل إلى أن وفاته كانت سنة ١٨٠هـ ، ومن استنتاجات الدكتورة خديجة الحديثي التي تجعل الكتاب استغرق أكثر من عشرين سنة تأليفا فإن سيبويه . على كلامهم . لم يكن قد أتم الكتاب بعد فإن ضربنا بكل ما مضى عرض الحائط . وقد فعلتُ . فهل من المعقول ان سيبويه تـرك كتابـه هـذا السـري فـي البصـرة، وخـرج منهـا مغلوبـا محزونـا ، يشتكي ما وقع عليه من غبن دون أن يفكر في كتابه الذي عانى في تأليفه . على غير مثال سابق ! . الأمرين، هل يصح عقلا أن يجلس عشر سنوات

١ نزهة الألباء ص٩٢

٢ ـ سيبويه إمام النحاة ص١٠٧

كاملة بعيدا لا يدري شيئا عن كتابه! ألم يكن من المنطق والعقل أن يحمل كتابه معه حيثما ألقت به الريح، ثم متى وأين وكيف وجده الأخفش؟ أما سيبويه فلم يرو عنه أنه ذكر للأخفش ولا غير الأخفش كتابه الذي تركه، وذهب لينافس الكسائي في حاضرة الدولة، ولم يذكره له أيضا في ذلك المشهد الذي جمعهما . على نص رواية الزبيدي . على شط البصرة، فقد روى الزبيدي عن الأخفش لقاءه مع سيبويه بعد أن خرج من بغداد محزونا مغتما فقال:" فلما وصل سيبويه شط البصرة وجه إليِّ فجئته فعرفني خبره مع البغدادي وودعني ومضى إلى الأهواز ثم مات في ذرب أصابه وما قتله إلا الغم "[1] فالرواية على ما فيها من اضطراب لتناقضها مع رواية أخرى تنفي وقع مثل هذا اللقاء . لم يكن فيها ثمة إشارة من قريب أو بعيد لكتاب كُتِبَ أو مؤلف نسج، فلا المنطق يجيز كون الأخفش راوية كتاب سيبويه والطريق إليه، ولا النقل يثبت للأخفش هذا الفضل، هذا إذا كان اليقين قائما على أن الأخفش كان في إثناء المناظرة وبعدها باقيا في البصرة يعلم ويتعلم ويقرأ ويقرئ الخلق كتاب سيبويه، لكن اليقين أنه ليس يقينا مطلقا، فروايات أُخَر جعلت الأخفش في بغداد حاضرا مناظرة سيبويه والكسائي شاهدا على ما أصاب سيبويه من انكسار مؤلم بعدما ظفر به الكسائي وأصحابه، فروى ابن النديم و الذهبي خبر حضور الأخفش المناظرة ، قال:" كان وروده العراق قاصدا يحيى بن خالد، وقد جمع خالد البرمكي بينه وبين الكسائي والأخفش فناظراه وخاطباه في مسائل وسألاه عنها وحاكماه إلى فصحاء العرب " [2].

١ ـ انظر. طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص٧١و٧٢

٢ ـ الفهرست لابن النديم ص٧٤ وسير أعلام النبلاء للذهبيج٨ ص٢٥٣

فمتى إذن جرت أحداث الثلاثي الجرمي والمازني والأخفش إذا كان خبر وجود الكتاب أصلا تحوم حوله شكوك كثيرة مقنعة ، وإذا كان الأخفش نفسه تحوم شكوك أيضا حول وجوده في البصرة في تلك الأوقات !

أستطيع في ختام هذه التطواف المقتضب حول سيبويه وكتابه أن أجزم أن تاريخ سيبويه وكتابه يحتاج إلى مراجعة دقيقة موضوعية مجردة بلا خوف أو وجل، مراجعة تضع الأمور في نصابها، حتى وإن أدت إلى الإقرار بالكتاب دون صاحبه، حتى عن أدت نتائجها إلى عدم الاقرار بصواب مطلق لأحد كائنا من كان ما لم يكن كلامه مدعوما بدليل قاطع جازم.

الخاتمة

أستطيع أن أقول: إن الأهداف التي انطلقت منها هذه الدراسة قد تحققت بنسبة كبيرة ،وقد جاءت على النحو الآتي

(١) فقد حاولت قراءة جزء من التاريخ . التراث . العربي العلمي قراءة معيارية، وقد استطعت لفت الأنظار لما يحيط مروياته من شكوك تدفع في الطعن في بعض أحداثه الهامة مما يحمس الباحثين على إعادة قراءته وتقييمه مرة أخرى لنقف على تاريخ واقعي حقيقي يعتمد على القرائن البراهين الموثقة .

(٢) توصلت لنتائج قاطعة في تاريخ سيبويه تنفي بعض أحداثه ، وتضع علامات استفهام على أجزاء أخر ، فمما قطعت به نفي صلة سيبويه بحماد بن سلمة نفيا قاطعا ، ودعوت للتثبت مما بني على هذه القصة ، نفيت صلة سيبويه بعمر بن عيسى الثقفي نفيا قاطعا ، ودعوت للبحث عن مصير النقول التي نقلها سيبويه عنه ، أثبت شكوكا كثيفة حول تلمذة سيبويه للخليل من بمقارنة تواريخ الميلاد والوفاة ، ودعوت للبحث في مسألة تأليف سيبويه لكتاب في علم الخليل ! ناقشت بموضوعية خبر الأخفش وصلته بكتاب سيبويه ، وتبين من النقاش ومقارنة الروايات والتواريخ ، وتحكيم المنطق أنه لا يمكن لعاقل أن يصدق تلك الفرية ، ودعوت لنقاش ما بني عليه وتحديد مصيره ! دعوت بعامة في أكثر من عبارة لتقييم ما استقر في أذهان الدارسين عن سيبويه، وعن جهوده التي جعلت منه شيخا للنحاة، وحجة للعربية، وجعلت من كتابه المنسوب إليه قرآنا للنحو، وجعلت لرأيه قداسة لا تنتقد أو تخالف وفيما يرويه ثقة مطلقة لا تُجْرَحُ.

(٣) انطلاقا من النقطة السابقة، فإني أعتقد أني استطعت زحزحة الصورة المثالية التقليدية الموروثة عن (سيبويه) وتاريخه، ببيان وجوه الخلل التي

تكتنفها، راجيا أن تكون خطوة وإن قصرت على طريق إعادة النظر فيما بني على هذا التاريخ من عوائق تمنع من تنقية العلم وتجديده وإعادة صياغته دون حرج، ودون (من أراد أن يصنع كتابا فليستح) وكذلك بناء تاريخٍ لعلم النحو على أسس أكثر دقة

(٤)أعتقد أن الدراسة استطاعت بدرجة ما لفت الأنظار إلى قصور الطريقة التي اعتمدها كتَّاب الأخبار والتراجم والسير قديما وحديثا، إذ اعتمد أكثرهم على نقل الأخبار عما سبقه نقلا حرفيا بما فيه من روايات يعارض بعضها بعضا، وروايات لا يخفى ما فيها من التكلف والصنعة، دون إعمال لفكر، أو فحص لنقل، بل يستعمل أحدهم خياله . خاصة المعاصرين . فينسج منه ما يتعدى النقل إلى ما يتصوره هو، ثم يبنون على هذه الصورة نتائج يجعلونها حقائق لا يمكن مناقشتها فضلا عن صحة الاعتراض أو المخالفة.

المراجع

(١) أخبار النحويين البصريين، لأبي سعيد السيرافي، تحقيق/طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى/ الناشر/مصطفى البابي الحلبي.

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ،الناشر/ دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٢م.

(٣) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لعمر بن علي بن أحمد الأنصاري ابن الملقن سراج الدين أبو حفص

(٤) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: عيسى البابي الحلبي، سنة النشر: ١٣٨٤– ١٩٦٤، الطبعة الأولى .

(٥) التلقي والسياقات الثقافية . بحث في تأويل الظاهرة الأدبية/ المؤلف : عبد الله إبراهيم ، كتاب الرياض ١٤٢٢هـ

(٦) جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف ، محمد طاهر الجوابي، لناشر: مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله.

(٧) الحيوان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ

(٨) الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية /د. محمد القاضي، الطبعة الأولى/ منشورات كلية الآداب منوبة ودار الغرب الإسلامي ١٤١٩/ ١٩٩٨

(٩) سيبويه إمام النحاة، للأستاذ / علي النجدي ناصف، الناشر عالم الكتب

(١٠) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله شمس الدين المحقق: شعيب الأرناؤوط – بشار معروف – آخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٠٢ – ١٩٨٢.

(١١) شواهد الشعر في كتاب سيبويه، د. خالد عبد الكريم جمعة دار النشر: الدار الشرقية .الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

(١٢) طبقات الشافعية، المؤلف/ أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (المتوفى: ٨٥١هـ)/ المحقق: د. الحافظ عبد العليم خان/ دار النشر: عالم الكتب – بيروت لطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ

(١٣) طبقات النحويين واللغويين محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية، الناشر/ دار المعارف

(١٤) الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم، تحقيق/ إبراهيم رمضان، الطبعة الثانية، الناشر/دار المعرفة بيروت – لبنان.

(١٥) كتاب سيبويه وشروحه، الدكتورة /خديجة الحديثي، طبع بمطابع التضامن ببغداد ١٩٦٧ .

(١٦) الكتاب لسيبويه ، تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون الطبعة الثالثة ، الناشر /مكتبة الخانجي

(١٧) المدارس النحوية د. شوقي ضيف ، الناشر / دار المعارف الطبعة السابعة .

(١٨) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، تحقيق / محمد أبي الفضل إبراهيم/ المكتبة العصرية . بيروت
(١٩) معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى١٩٩٣
(٢٠) من تاريخ النحو، المؤلف: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الفكر
(٢١) نزهة الألبا في طبقات الأدبا، لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، تحقيق / إبراهيم السامرائي ، الناشر/ مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة الثالثة
(٢٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني تحقيق/ إحسان عباس، الناشر: دار صادر، سنة النشر: ١٣٨٨ – ١٩٦٨.
(٢٣) نقد النص التاريخي عند الدكتور أكرم ضياء العمري/د. أحمد البان، الناشر/ موقع إسلام أون لاين / تاريخ: ١ ديسمبر، ٢٠١٥
(٢٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق/ إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، سنة النشر: ١٩٧٢

References :

(1) a5bar aln7oyyn albsryyn ،laby s3yd alsyrafy ،t78y8/6h m7md alzynywm7md 3bd almn3m 5fagy ،al6b3a alaoly/ alnashr/ms6fy albaby al7lby.

(2) enbah alroaa 3la anbah aln7aa ،lgmal aldyn abo al7sn 3ly bn yosf al8f6y (almtofy: 646h-) ،t78y8/ m7md abo alfdl ebrahym ،alnashr/ dar alfkr al3rby - al8ahra،wm2ssa alktb alth8afya – byrot ،alaoly ،1406 h**1982 –** ،m.

(3) albdr almnyr fy t5ryg ala7adythwalathar aloa83a fy alshr7 alkbyr ،l3mr bn 3ly bn a7md alansary abn alml8n srag aldyn abo 7fs

(4) bghya alo3aa fy 6b8at allghoyynwaln7aa ،l3bd alr7mn bn aby bkr alsyo6y glal aldyn ،t78y8/ m7md abo alfdl ebrahym ،alnashr: 3ysy albaby al7lby ،sna alnshr: 1384– 1964 ،al6b3a alaoly .

(5) altl8ywalsya8at alth8afya . b7th fy taoyl alzahra aladbya/ alm2lf : 3bd allh ebrahym ،ktab alryad 1422h

(6) ghod alm7dthyn fy n8d mtn al7dyth alnboy alshryf ، m7md 6ahr algoaby ،lnashr: m2ssa 3bd alkrym bn 3bd allh.

(7) al7yoan ،alm2lf: 3mro bn b7r bn m7bob alknany balola2 ،allythy ،abo 3thman ،alshhyr balga7z (almtofy: 255h-) ،alnashr: dar alktb al3lmya - byrot al6b3a: althanya ،1424 h.

(8) al5br fy aladb al3rby: drasa fy alsrdya al3rbya /d. m7md al8ady ،al6b3a alaoly/ mnshorat klya aladab mnobawdar alghrb al eslamy 1419/ 1998

(9) syboyh emam aln7aa ،llastaz / 3ly alngdy nasf ،

alnashr 3alm alktb
(10) syr a3lam alnbla2 ،m7md bn a7md bn 3thman alzhby abo 3bd allh shms aldyn alm788: sh3yb alarna2o6 - bshar m3rof – a5ron ،alnashr: m2ssa alrsala ،sna alnshr: 1402 – 1982.
(11) shoahd alsh3r fy ktab syboyh ،d. 5ald 3bd alkrym gm3a dar alnshr: aldar alshr8ya .al6b3a althanya 1409h**1989 – ،**m.
(12) 6b8at alshaf3ya ،alm2lf/ abo bkr bn a7md bn m7md bn 3mr alasdy alshhby aldmsh8y ،t8y aldyn abn 8ady shhba (almtofy: 851h.)/ alm788: d. al7afz 3bd al3lym 5an/ dar alnshr: 3alm alktb - byrot l6b3a: alaoly ، 1407h.
(13) 6b8at aln7oyynwallghoyyn m7md bn al7sn bn 3byd allh bn mz7g alzbydy alandlsy al eshbyly ،abo bkr t78y8/m7md abo alfdl ebrahym ،al6b3a althanya ، alnashr/ dar alm3arf
(14) alfhrst ،abo alfrg m7md bn es7a8 bn m7md alora8 albghdady alm3tzly alshy3y alm3rof babn alndym ، t78y8/ ebrahym rmdan ،al6b3a althanya ،alnashr/dar alm3rfa byrot – lbnan.
(15) ktab syboyhwshro7h ،aldktora /5dyga al7dythy ،6b3 bm6ab3 altdamn bbghdad 1967 .
(16) alktab lsyboyh ،t78y8 alastaz/ 3bd alslam haron al6b3a althaltha ،alnashr /mktba al5angy
(17) almdars aln7oya d. sho8y dyf ،alnashr / dar alm3arf al6b3a alsab3a .
(18) mratb aln7oyyn laby al6yb allghoy ،t78y8 / m7md aby alfdl ebrahym/ almktba al3srya . byrot
(19) m3gm aladba2 ershad alaryb ely m3rfa aladyb ،

lya8ot al7moy ،alnashr: dar alghrb al eslamy ،al6b3a alaoly1993

(20) mn tary5 aln7o ،alm2lf: s3yd alafghany ،alnashr: dar alfkr

(21) nzha alalba fy 6b8at aladba ،l3bd alr7mn bn m7md bn 3byd allh alansary ،abo albrkat ،kmal aldyn alanbary ،t78y8 / ebrahym alsamra2y ،alnashr/ mktba almnar ،alzr8a2 – alardn ،al6b3a althaltha

(22) nf7 al6yb mn ghsn alandls alr6yb ،la7md bn m7md alm8ry altlmsany t78y8/ e7san 3bas ،alnashr: dar sadr ،sna alnshr: 1388 – 1968.

(23) n8d alns altary5y 3nd aldktor akrm dya2 al3mry/d. a7md alban ،alnashr/ mo83 eslam aon layn / tary5: 1 dysmbr, 2015

(24)wfyat ala3yanwanba2 abna2 alzman ،la7md bn m7md bn aby bkr bn 5lkan ،t78y8/ e7san 3bas ، alnashr: dar sadr – byrot ،sna alnshr: 1972